

السليقية

بين الفصحى والعامية

للأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي

عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

السليقية نسبة إلى السليقة : وهي السجية والطبيعة والطبع . وأكثر ما تستعمل السليقة في الطبيعة الكلامية فإذا قالوا فلان يتكلم بالسليقة أرادوا أنه يتكلم أو يقرأ بطبعه لا عن تعلم

وتستعمل السليقة أحياناً في غير الكلام فيقال (الكرم سليقته والسخاء خليقته) . أما إذا قالوا فلان سليق بياء النسبة فلا يراد منه حينئذ إلا معنى نسبته إلى السليقة الكلامية وحدها ، ويقال كلام سليق . ويزداد معنى إرادة الكلام في لفظ (السليقة) إذا ألحقت بها بياء المصدرية . حتى إذا قالوا السليقية سجية فلان لم يمد يفهم منها إلا الطبع اللئيم الذي نشأ عليه فلان في بيئته : قال الأزهرى فإذا قرأ البدوي بطبعه وافته لم يتبع سنة قراء الأمصار قيل

الأولى غير يؤمن الثانية في المعنى وإن جاء الفرق من اختلاف حرف الجر بعدها ، فإن الإيمان بالله غير الإيمان للمؤمنين . فهذا إذا أخذنا بالجواهر لا بالعرض مثل من أروع أمثلة الجناس التام

هذه متون من الأمثلة جى بها على سبيل التوضيح لأعلى سبيل الحصر ، وسيختلف الحكم فيها وعليها باختلاف المايير ، ولكن سيسلم منها على أى حال لجميع النظار على اختلاف المعيار مثل جديدة تنقض تلك القضية التي جرى عليها علماء العربية ومن بينهم صاحب الوسيلة الأدبية وصاحب الاتقان ، من ندرة الجناس التام في القرآن

محمد أحمد الغمراوي

هو يقرأ بالسليقية أى بطبيعته وليس بتعليم . وفي حديث أبي الأسود الدؤلي أنه وضع علم النحو حين اضطرب كلام العرب وغلبت السليقية : قال صاحب اللسان في تفسير هذه السليقية أنها اللغة التي يسترسل فيها التكلم على سليقته أى سجيته وطبيعته من غير تمعد إعراب ولا تجنب لحن ومن هنا نستنتج أن السليقية مادامت لغة البيئة أى اللغة التي يسترسل فيها كل متكلم بطبعه — كانت السليقية ضربين (سليقية فصاحة) (وسليقية بذلة) وهي السليقية العامة . وإنما اخترت كلمة (البذلة) مشابحة للزغشري فإنه استعملها في عبارة له كما سيأتى

فسليقية الفصاحة أو السليقية الفصحى هي اللغة التي غلبت على لسان التكلم بحكم البيئة البدوية : كالإعراب الذين ملكت الفصاحة أنسنتهم فلم يتطرق إليها الفساد : فهم لا يتكلمون بها إلا معربة واضحة المقاطع ومن دون أن يتكلفوا الإعراب أو تجنب اللحن . وأشهر شاهد على هذا الضرب من السليقية أعنى السليقية الفصحى قول شاعر البادية

(ولست بذحوى يلوك لسانه)

ولكن مطلق أقول فأعرب)

والضرب الثاني من السليقية ماسيته (سليقية البذلة) وهي سليقية العربي العاى في لهجته التي غلبت على أهل مصر بعد انتشار الاسلام وقد مرت الاشارة إليها في حديث أبي الأسود مذ قالوا إنه وضع علم النحو (حين اضطرب الكلام . وغلبت السليقية)

فالعربي العاى كالعربي البدوي : غلبت على كل منهما لهجته أو لفته بحكم تأثير بيئته ونشأته : الأعرابي ترك نفسه على سجيته فاسترمل في لفته الفصحى لا يلوى على شيء غير متكلف إعراباً ولا متجنب لحناً ، والعربي العاى السليقي البذلة يترك نفسه هو أيضاً على سجيته فيتكلم بلغة أمه ولهجة بيئته لا يتكلف إعراباً ولا يتجنب لحناً : البدوي

قولهم هذا لا يستدل منه على جواز وصف اللثة الملحونة بالابتذال . فالكلام المبتذل والمثل المبتذل إنما جاءها وصف الابتذال من ناحية اللهج بذكرها وكثرة الاستعمال لها حتى لو قالها الحضري البليغ أو البدوي الفصيح سميا مبتذلين بمعنى أنهما متداولان لأنهما عاميان ملحونان وفرق بينهما فالبذلة في الكلام بمعنى العامية الملحونة إنما استفدناها مباشرة من عبارة الزغشري . وفوق ذلك كله فإن اللحن في البذلة السليقية إن أنكره بعضهم واستبشمه فإن الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما استحسناه واقتوا بجوازه بل نصح بعضهم بأن يستعمل الكلام الملحون في مخاطبة المرء لغيره وفي تحديثه جلساءه لا في ما عدا ذلك فقال (لا تستعملوا الإعراب في كلامكم إذا خاطبتم . ولا تحلو منه كتبكم إذا كتبتم) كأنه يقول أوصيكم أن تعربوا كتاباتكم وتلحنوا في محاوراتكم

ولعل هذه الوصية في مراعاة الإعراب في الكتابة وتركها في المحادثة إنما استندت إلى ما وقع للفراء مع هارون الرشيد : ذلك أنه دخل عليه يوما وتكلم بكلام لحن فيه مع جلالة قدره وعلو رتبته في النحو . فقال جعفر يا أمير المؤمنين إن الفراء قد لحن . فقال الرشيد أنلحن يا يحيى ؟ (ويحيى اسم الفراء) فقال يا أمير المؤمنين إن طباع أهل البدو الإعراب وطباع أهل الحضرة اللحن : فإذا حفظت أو كتبت لم لحن وإذا رجعت إلى الطبع (أى في محادثة الناس) لحت . فاستحسن الرشيد كلامه .

واعتذر صاحب صبح الأعشى للحائنين في الكلام مؤيدا الوصية المذكورة فقال إن اللحن قد فتنا في الناس . والألسنة قد تغيرت حتى صار التكلم بالأعراب عيبا . والنطق في الكلام الفصيح عيبا . والذي يقتضيه حال الزمان الجرى على منهاج الناس بأن يحافظ على الأعراب في القرآن والحديث والشعر والكلام المسجوع وما بدون من الكلام ويكتسب من الرسائل ونحوها . ويقتصر اللحن في الكلام

يعرب بحكم السليقية . والعامى يلحن بحكم السليقية . فليس الشاهر أو الراجز البدوي سليقى بقول فيعرب وحده بل إن الرجال الشعبي سليقى أيضا بقول فيلحن ولا يعرب بحكم السليقية . كلاهما سليقيان

بقي أن نورد شاهدا على السليقية الثانية (سليقية البذلة) أى على أن العربي العامى إذا استرسل في لثنته الملحونة صح أن يوصف بالسليقية وأن يقال إنه سليقى عثرت على شاهد لطيف الغزى رقيق الحواشى أورد الزغشري في كتابه (الفائق) تعليقا على مادة ظرف قال : ومن حديث معاوية رضى الله عنه أنه قال لجلسائه يوما : كيف ابن زياد فيكم : قالوا : ظريف على أنه يلحن . قال : أوليس ذلك أظرف له ؟

قال الزغشري : وإنما استظرف معاوية ابن زياد لأن السليقية وتجنب الأعراب مما يستملح في البذلة من الكلام قال : ومنه البيت المشهور :
(منطق صائب وتلحن أحيا

نا وأحلى الحديث ما كان لحننا^(١))

فالزغشري استعمل السليقية بمعنى استرسال الظريف في البذلة من الكلام . وليست البذلة في الكلام الواردة في عبارته إلا التبتل وعدم التصاون في تحرى الفصيح العرب . ومن هنا صح لنا استعمال سليقية البذلة في مقابل سليقية الفصاحة

فاذا كان علماء اللثة خصوا البذلة والابتذال والمبازل في رث الثياب أو في لبس المتهين منها فإن شيخنا الزغشري لمستعمله في رث الكلام وعاميه والبتذل منه

على أنهم يقولون في فصيح اللثة (كلام مبتذل ومثل مبتذل) إذا كان كثير الاستعمال ملهوج الذكر . ولكن

(١) أورد الزغشري هذا البيت على أن اللحن فيه بمعنى الخطأ في الإعراب . وهو أحد الرأيين في البيت ، وهناك من يرى أن المراد من اللحن فيه التعمير لا الخطأ ، والتعمير هو أن تتحول قولا يفسه مخاطبك ويغنى على غيره

العوام (وقد عني بهم أصحاب السليقة العامية) أو ملححة من ملحهم فيألك أن تستعمل لها الإعراب أو تتخير لها لفظاً حسناً فإنك إن فعلت أفسدت الإمتاع بها وأخرجتها من صورتها التي وضعت لها وأذهبت استطابة السامعين إياها . فالجاحظ يرى أن رواية الأقوال الملهونة والنوادر الملتوية اللهجة يستطيهها الجلساء ويلذون بسممها وخاصة إذا كان اللحن (من الجوارى الطرف والكرواعب النواهد والنبواب الملاح) فإن ذلك يستملح في كلامهم مالم تسكن الواحدة منهم صاحبة تكلف فإن التكلفة للكلام الملهون تسمج ويتجاف عنها الطبع وبكثر هذا اللحن المستملح في الأعجميات من النساء كاروميات والأرمنيات أعجب ما أسمع منها في السحر تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر والسوأة السوأة في ذكر القمر

وما قولكم في أبي اسحق بن سيار النظام فإنه كان يلحن في كلامه ويروى عنه صدقه الجاحظ كلامه الملهون ويمتدح عنه بل يسوغ له عمله : فقد روى في كتابه الحيوان (جزء ١ صفحة ١٣٦) أنه خرج مع النظام ليلة في بعض طرقات الأبله فالح على النظام كلب من شكل كلاب الرعاة فقتل له ولم يجزع وأقبل على الجاحظ يحده عن نفسه ويمدد خصاله إلى أن قال مانمه : إن كنت سبع فاذهب مع السباع . إلى آخر حديثه ؛ فلق الجاحظ على هذا بقوله : لا تنكر (أيها القاري .) على حكايته عن النظام بقول ملهون مذ قلت (إن كنت سبع) ولم (أقل إن كنت سبعاً)

ثم علل ذلك بقوله إن الإعراب يفسد نوادر المولدين كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب لأن سامع النوادر إنما أعجبه تلك الصورة وذلك المخرج وتلك الألفاظ ، فإذا دخلت على هذا الأمر الذي إنما أضحك - بخفه وعجمته حروف الأعراب والتخفيف والنثقل وجولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء وأهل المروءة والنجابة - إذا فطنت ذلك انقلب المعنى مع انقلاب نظمه وتبدلت صورته .

الشائع بين الناس الدائر على ألسنتهم يتداولونه بينهم ويتداولون به في مخاطبتهم . وعلى ذلك جرت سنة الناس في الكلام مذ فسدت الألسنة وتغيرت اللغة . انتهى كلام الفلقشندي وهذه المسألة أى مسألة استباحة اللحن والإخلال بالإعراب في لغة المحاوره موضع نزاع كبير بين فضلاء العصر ولا سيما أساتذة المدارس والمشتغلين بتعليم الناس وينبغي أن يزداد على المواطن التي عددها الفلقشندي وحظر اللحن فيها من مثل المدونات والمراسلات - يزداد كلام المدرسين والمعلمين في قاعات الدروس حيث يسطون عاضراتهم تحت اسماع الطلاب . فلا يجوز بحال اللحن فيها ، ولا الإخلال بالإعراب في ألفاظها ومبانيها : فإن الناشئين في لبونة ألسنتهم وحساسية أذنتهم قابلون للانطباعات والتأثيرات ، فإذا سمعوا الكلام الملهون المرة بعد المرة يوشك أن تفقد ملكاتهم وتستعجم لهجتهن ويتصل يبحث استطراف السليقية في الكلام الملهون بحث آخر فيه طرافة وله علاقة يبحث اللهجات وهو : هل يجوز للكاتب أو المحدث أن ينقل الكلام الملهون بنفسه من دون تغيير ؟ والجواب عن هذا يعلم مما مر بالضرورة . أليسوا قد أجازوا التكلم بالملهون فلأن يبيعوا نقله أو روايته بالطريق الأول . على أن أساطين الأدب العربي صرحوا بالترخص فيه بل بترك القول الملهون على أعوجاجه وقبيح أغلاطه

قال الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) ومتى سمعت حفظك الله نادرة من كلام الأعراب (وقد عني بهم أرباب السليقة الفسحة) فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها . فإنك إن غيرتها بأن لحنت في إعرابها أو أخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير ^(٢) وإن سمعت نادرة من نوادر

(٢) امل الفضل هنا بمعنى واحد للصوت وهو زيادة في الكلام

ان مربك في حديث من النوادر التي نرويها لك : لأن الإعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه وشاطر (١) النادرة حلاوتها قال : وسأمثل لك مثالا : قيل لمزيد (وهو رجل صاحب نوادر) وقد أكل طعاما كظه (أى نقل على معدته) ق . فقال ما أقي ؟ أقي ؟ نقي ! ولحم جدى : مرى طالق ، لو وجدت هذا قياً لأكلته . ألا ترى أن هذه الألفاظ لو وفيت بالإعراب والهمز حقوقها لذهبت طلاوتها ولاستبشعها باممها

والمؤلفون في نقد الشعر كابن قدامة لم ينب عنهم حسن ما قاله الجاحظ وابن قتيبة : فهم على شدة تنظيهم في نقد الأقوال وتمييز زيوفها أجادوا رواية للملحون ، وحكاية السخيف من النوادر : قال ابن قدامة في كتابه نقد الشعر (وللفظ السخيف موضع آخر لا يجوز فيه غيره وهو حكاية النوادر والمضاحك وألفاظ السخفاء والسفهاء فإنه متى حكاها الإنسان بغير ما قالوا خرجت عن معنى ما أريد بها وبردت عند مستمعها) هـ

هذه هي كلمتي في السليقية بنوعها : السليقية في القول الفصيح ، والسليقية في البذلة من الكلام . والسليقية الثانية هي سليقتنا نحن أبناء هذا العصر فقد ملكت علينا ألسنتنا كما ملكت آسان الفراء في عصر الرشيد حتى أصبحنا غير قادرين على التفلسف من أوهامها إلا بتكاف وتلكؤ شديدتين . وذلك يكون منا إذا رأينا أنفسنا مضطرين إلى إفهام غيرنا ممن لا يفهم لهجتنا ولا ما يحكى بها : كما إذا حاورنا أبناء المغرب الأقصى أو حاورونا ، فإن لهجاتنا المختلفة تحول بيننا وبين الاستمتاع بحديثهم فنضطر إذ ذاك إلى ترك سليقية البذلة واللجوء في التعاطف إلى السليقية الفصحى وهي لغة القرآن وما أبركمها لغة

وأكثر ما تتحقق هذه الضرورة أى ضرورة الانتجاع

(٣) معنى شاطرهما حلاوتها أنه نامها إياها فلبسها نفسها وأبقى لها الذنب الآخر

ثم قال الجاحظ في مكان آخر : ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف : فإن كان موضع الحديث على أنه مضحك ومله وداخل في باب المزاح والتفكيك فاستعملت فيه الإعراب انقلب عن جهته وإن كان في لفظه سخيف فأبدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس بكرمها ويأخذ بكظامها

ثم قفى الجاحظ على رأيه هذا بهذه العبارة الجريئة فقال (وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر كذا وكذا وعدد الجاحظ ألفاظاً يستحى من ذكرها) ارتدع وأظهر التمرز واستعمل باب التورع . وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع . ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستعمل ونذالة متمكنة انتهى

أقول قد غلا الجاحظ في نهوين أمر كلمات الرفث والبذاء على الناس ؛ وأرى أن أستدرك عليه بما استدركه ابن قتيبة على نفسه وقد حام حول ما قاله الجاحظ فقال : ولم أترخص لك في إرسال اللسان بالرفث على أن تجعله هجيراً على كل حال ، وديدتك في كل مقال . بل الترخص متى فيه عند حكاية تحكيها أو رواية ترويها تنقصها الكناية ويذهب بحلاوتها التعريض وأحببت لك أن تجرى في الدليل من هذا على عادة السلف الصالح في إرسال النفس على النجاسة والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع ولا تستشعر أن القوم (يعنى السلف الذين ترخصوا بذكر الرفث) ذارفوا وتثرعت ، وتلوا أدبانهم وثورعت اهـ

ثم انتقل ابن قتيبة في كتابه (عيون الأخبار) من رواية كلمات الرفث والتريخيس بها بقدر معلوم إلى رواية الكلام للملحون من نوادر وملح ، وهو موضوعنا الذي كنا فيه مع الجاحظ فقال : وكذلك اللحن في الإعراب